

التطبيقات الجغرافية

لما جاء في قوله تعالى

مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان

دكتور سمير متولي

موضوع هذا المقال هو محاولة للإجابة عن سؤال جغرافي وجّه إليّ منذ أعوام ووقفت منه وقتئذ موقف العاجز الحائر .

وجّهه إليّ عالم جليل من علماء الإسلام هو الأستاذ الدكتور محمد تاج وكان وقتئذ إماماً للجامع الأزهر .

سألني فضيلته عن البحرين اللذين تشير إليهما الآيات القرآنية الكريمة التالية^(١) :

« مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان »

« فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

« يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .

« فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

طلب فضيلته أن أحدد له جغرافياً موقع هذين البحرين . وأن أعين له مكان التقائهما وموقع البرزخ الذي يفصل بينهما فلا يبغي أحدهما على الآخر .

(١) القرآن الكريم . سورة الرحمن . الآيات ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ .

وأدرك أستاذنا أن سؤاله كان مفاجأة لي فأمهلني في الرد عليه . والواقع أن الدهشة عقدت لساني إذ كيف يوجه إليّ أسئلة من هذا النوع أستاذ جليل من أئمة العلماء المسلمين يلم بدون شك بكل ما كتبه المفسرون في هذا الشأن .

ولم أستطع وقتئذ أن أتورط فيما ليس لي علم به فأثرت أن أنتفع بالرخصة التي منحني إياها وهي إرجاء الرد على أسئلته إلى حين .

وحتى أصل إلى جواب شاف عن هذه الأسئلة كان طبيعياً أن أرجع أولاً إلى القرآن الكريم حتى أُلِمَّ بالآيات الكريمة التي عرضت لذكر البحرين . ثم أرجع بعد ذلك إلى كتب المفسرين حتى أتعرف على آرائهم في تفسير ما جاء في تلك الآيات .

وفي ضوء أولئك جميعاً أحاول التطبيق الجغرافي لما جاء في تلك الآيات الكريمة .

أما الآيات فقد وردت في أربع سور قرآنية هي :

الرحمن والفرقان والنمل وفاطر .

ففي سورة الرحمن جرت الآيات الكريمة على النحو الآتي ^(١) :

« مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

وفي سورة الفرقان جرت الآيات على النحو الآتي ^(٢) :

« وهو الذي مرج البحرين . هذا عذب فرات . وهذا ملح أجاج . وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً » .

(١) القرآن الكريم . سورة الرحمن : الآيات ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ .

(٢) القرآن الكريم . سورة الفرقان : الآية ٥٤٣ .

وفي سورة النمل وردت الآيات كما يأتي (١) .

« أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا . وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا . وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي . وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا . أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » .

وفي سورة فاطر جرت الآيات على النحو الآتي (٢) :

« وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ . هَذَا عَذَبَ فِرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ . وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ . وَمَنْ كُلَّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا . وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا » .

والصورة التي ترسمها الآيات الكريمة واضحة كل الوضوح ومعالمها الرئيسية تتمثل فيما يلي :

١ - هناك بحران أجراهما الله سبحانه وتعالى أحدهما عذب فرات والثاني ملح أجاج .

٢ - والماء في هذين البحرين يلتقي ولكنه لا يمتزج أو يختلط لوجود برزخ حاجز بينهما .

٣ - ومن البحرين معاً يستخرج اللؤلؤ والمرجان .

والصورة في وضوحها تعبر عن إعجاز إذ كيف يلتقي الماء العذب والماء المالح معاً دون أن يختلطا أو يمتزجا فيبقى العذب عذباً والمالح ملحاً .

ومن أجل هذا فإنه سبحانه وتعالى بعد أن يصور هذه المعجزة في آياته الكريمة يوجه تقريره إلى المكذبين بآلائه ومعجزاته بقوله : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

وتتكرر في سورة الرحمن صور عديدة من نعم الله على عباده وتعدد معجزاته

(١) القرآن الكريم . سورة النمل : الآية ٦١ .

(٢) القرآن الكريم . سورة فاطر : الآية ١٢ .

في خلق الكون الذي نعيش فيه . وعقب كل صورة منها يوجه سبحانه وتعالى تقرّبه إلى أولئك الذين يمجّدون نعمه أو ينكرون معجزاته من الإنس والجن بقوله : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

وقد وردت آية « فبأي آلاء ربكما تكذبان » . في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة^(١) . وكل منها تأتي بعد نعمة من نعم الله على عباده أو معجزة من معجزاته سبحانه وتعالى .

وقد بدأت السورة بعد ذكر الرحمن جل وعلا بذكر أعظم نعمة أسبغها على عباده وهي تعليمهم القرآن الكريم ثم جرت الآيات واحدة بعد أخرى تعرض آلاء الله ومعجزاته في صورة توضّح عظمة خالقها جل شأنه وتبرز قدرته وسلطانه على الإنس والجن .

ومن النعم والمعجزات التي ورد ذكرها في سورة الرحمن :

— أنه سبحانه وتعالى خلق الإنسان وعلمه البيان .

— وأنه خلق الشمس والقمر وأجراهما في بروجهما بحساب وتقدير .

— وأنه خلق السماء ورفعها من غير عمد .

— وأنه بسط الأرض ومهدا للخلائق .

— وأنه خلق الفاكهة وأنبت النخيل .

— وأنه رب المشرقين ورب المغربين .

— وأنه أرسل البحرين العذب والملح يلتقيان دون أن يبغى أحدهما على الآخر .

كل أولئك آيات بينات ومعجزات كبرى يشاهدها الناس جميعاً ويرونها رأي العين وإذن فلا سبيل إلى إنكارها لأنها تقع تحت حسهم وأبصارهم . ومن بينها

(١) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : المنتخب في تفسير القرآن ، ص ٧٩١ ، القاهرة ١٩٦٨ .

بطبيعة الحال معجزة التقاء ماء البحرين العذب والملح دون أن يختلط أحدهما بالآخر
فيبقى العذب عذباً والملح ملحاً .

بعد أن عرضنا لذكر الآيات القرآنية الكريمة التي وردت فيها إشارة إلى البحرين
نأتي إلى ما جاء في أقوال المفسرين في هذا الشأن مركزين بصفة خاصة على أمور ثلاثة
هي :

— ما قيل عن البحرين وعن التقاء ماءيهما .

— ما قيل عن البرزخ الذي يفصل الماء العذب عن الماء الملح ويحول دون
اختلاطهما وامتزاجهما .

— ما قيل عما يخرج من البحرين من لؤلؤ ومرجان .

ولن يكون في وسعنا في هذا المقال القصير أن نعرض في تفصيل لأقوال المفسرين
جميعاً كل على حدة ولذلك فإننا نعالجها معاً في إيجاز :
أولاً : ما قيل عن البحرين :

كان المفسرون في غاية الوضوح في تفسيرهم للمقصود بالبحرين فجميعهم
متفقون على أن أحدهما بحر عذب والثاني بحر ملح وليس ذلك بالأمر الغريب
فنصوص الآيات الكريمة صريحة في ذلك إذ تتضمن أن أحد البحرين عذب فرات
والثاني ملح أجاج .

والجغرافيون يتجاوزون حدود اللغة من غير شك عندما يقصرون معنى لفظ
البحر على البحر الملح دون البحر العذب . ولفظ البحر في الآيات الكريمة ورد على
إطلاقه بحيث يشمل الملح والعذب على السواء .

ولم يرد في أقوال المفسرين تحديد واضح للبحرين اللذين تشير إليهما الآيات
الكريمة وإن كان البعض منهم — وهم قلة — قد تعرضوا في تفسيراتهم لتحديدتهما
ولكن في غير تأكيد فعندما يذكرونهما يقولون « قيل بحر كذا وقيل بحر كذا »

هكذا بصيغة المبنى للمجهول وقليل القليل من المفسرين هم الذين ينسبون القول إلى
قائله :

ففي التفسير الكبير للإمام محمد الرازي فخر الدين^(١) وفي تفسير القرطبي^(٢)
وفي فتح البيان لأبي الطيب صديق بن حسن البخاري^(٣) ورد ما يأتي عن تحديد
البحرين :

{	قليل بحر المشرق وبحر المغرب
	وقيل بحر اللؤلؤ وبحر المرجان
	وقيل بحر الروم وبحر الهند

هكذا بصيغة المبنى للمجهول .

وفي حالات ثلاث فقط نسبوا القول إلى قائله فيما يتعلق بتحديد البحرين فيذكرون
ما يأتي :

قال الحسن وقتاده إنهما بحر فارس وبحر الروم
وقال ابن عباس إنهما بحر السماء وبحر الأرض
وقال ابن جريح إنهما البحر المالح والأنهار العذبة .
وبالبحار على هذا النحو الذي وردت به في أقوال المفسرين غير محددة تحديداً
دقيقاً :

{	وأين يوجد	فمثلاً : ١٠ هو بحر المشرق
	وأين يلتقي البحرين	وما هو بحر المغرب
{	وأين يوجد	ثم ١١ هو بحر اللؤلؤ وبحار اللؤلؤ كثيرة
	وأين يلتقي البحرين	وما هو بحر المرجان وبحار المرجان كثيرة

(١) الإمام محمد الرازي فخر الدين - مفاتيح الغيب الشهير بالتفسير الكبير . الجزء الثامن . ص ١٣ ،
مصر ١٣٠٨ هـ .

(٢) القرطبي . الجزء الثامن . مطابع الشعب . القاهرة .

(٣) أبو الطيب صديق بن حسن القنوح البخاري - فتح البيان - الجزء التاسع ، ص ١٧٤ ، وما بعدها .

ثم ما هو البحر المالح الذي يقصده ابن جريج .

وأي الأنهار العذبة يعني ؟

ثانياً : ما قيل عن البرزخ :

جاءت أقوال المفسرين عن معنى البرزخ واضحة أيضاً . فهم يجمعون على أنه حاجز يفصل بين ماء البحرين . إلا أنهم عندما يعرضون لطبيعة هذا الحاجز تتجه آراؤهم اتجاhein مختلفين :

— فبعضهم يرى أنه حاجز من الأرض اليابسة .

— ويرى البعض الآخر أنه حاجز غير مرئي يفصل بين الماء العذب والماء المالح بقدرة الله سبحانه وتعالى .

ومن الفريق الأول الحسن وقتادة^(١) فهما يريان أن أرض الحجاز هي البرزخ الذي يفصل بين ماء البحرين المقصودين وهما في نظرهما بحر فارس وبحر الروم .

ومن هذا الفريق أيضاً العالم عبد الجليل عيسى^(٢) فهو يذكر في تفسير التفسير ما يأتي :

« جعل بين البحرين حاجزاً من الأرض فلا يختلطان » .

ومن الفريق الثاني العلامة أبو السعود^(٣) الذي يذكر ما يأتي :

« أرسل الله البحر المالح والبحر العذب يتجاوران وتماس سطوحهما ولا فصل بينهما في مرأى العين » .

(١) المراجع السابقة .

(٢) عبد الجليل عيسى : تفسير التفسير ، ص ٧٠٩ ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٣) أبو السعود : في هامش الجزء الثامن من مفاتيح الغيب المشهور بالتفسير الكبير للرازي ، ص ٢٦ .

ومنه أيضاً أبو الطيب صديق بن حسن البخاري^(١) إذ يقول في فتح البيان :

« أرسل البحرين يتجاوران ويتماسان على وجه الأرض ولا فصل بينهما على مرأى العين » .

ومنه أيضاً هيئة العلماء^(٢) التي ألفتها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في مصر فهم يذكرون ما يأتي في المنتخب في تفسير القرآن الكريم .

« أرسل الله البحرين العذب والملح يتجاوران وتماس سطوحهما وبينهما حاجز من قدرة الله لا يطغى أحدهما على الآخر فيمتزجان » .

ثالثاً : ما قيل عما جاء في قوله تعالى : « لا يبغيان » .

تنجيه آراء المفسرين في هذا المعنى اتجاهين مختلفين أيضاً :

— فبعضهم يرى أن البحرين لا يبغي أحدهما على الآخر فيمتزج به .

— ويرى بعضهم الآخر أن البحرين لا يبغيان على الأرض المجاورة فيغرقانها .

ففي المعنى الأول يقول العلامة أبو السعود^(٣) :

« لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة » .

ويقول أبو الطيب صديق بن حسن البخاري^(٤) :

« لا يبغي أحدهما على الآخر بأن يدخل ويختلط به » .

وتقول هيئة العلماء التي ألفتها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر :

« لا يطغى أحدهما على الآخر فيمتزجان » .

(١) أبو الطيب صديق بن حسن البخاري : فتح البيان ، الجزء التاسع ، ص ١٧٤ .

(٢) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - المنتخب في تفسير القرآن الكريم ، ص ٧٩١ .

(٣) سبق ذكره .

(٤) سبق ذكره .

ويقول مجاهد وقتاده^(١) :

« لا يبغى أحدهما على صاحبه فيغلبه » .

وفي المعنى الثاني يقول العلامة أبو السعود^(٢) :

« لا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما » . (وهو بهذا يجمع بين المعنيين الأول والثاني) .

ويقول قتادة^(٣) :

« لا يبغيان على الناس فيغرقانهم فجعل بينهما وبين الناس يبسا

(وهو بهذا يجمع بين المعنيين كذلك) .

ويقول الرازي فخر الدين^(٤) :

« لا يبغيان على الأرض ولا يغطيانها فتكون الأرض بارزة يتخذها الإنسان مكاناً » .

ويقول سيد قطب في ظلال القرآن :

« إن جميع الأنهار العذبة تقريباً تصب في البحار الملحة إلا أنها لا تغير طبيعة البحار ولا تبغى عليها » . كما يذكر أن مستوى سطوح الأنهار أعلى في العادة من مستوى سطح البحر . ومن ثم فإن البحر لا يبغى على الأنهار التي تصب فيه ولا يغمر مجاريها بمائه الملح فيحولها عن طبيعتها وبينهما دائماً هذا البرزخ من صنع الله فلا يبغيان » .

(١) سبق ذكره .

(٢) سبق ذكره .

(٣) سبق ذكره .

(٤) سبق ذكره .

رابعاً : ما قيل عن اللؤلؤ والمرجان :

يفرق أغلب المفسرين بين اللؤلؤ والمرجان ويعدونهما نوعين مختلفين من منتجات البحار فاللؤلؤ في نظرهم هو الدر والمرجان هو الخرز الأحمر . إلا أن بعض المفسرين يرون رأياً آخر :

فابن عباس مثلاً يرى أن المرجان هو كبار اللؤلؤ أما اللؤلؤ فهو صغاره .

ويرى الضحاك وقتادة عكس ذلك فاللؤلؤ عندهما هو كباره والمرجان صغاره .

والمفسرون متفقون على أن اللؤلؤ والمرجان يستخرجان من الماء المالح . إلا أن بعضهم توقف عند قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » أي من البحرين المالح والعذب فزاهم يقولون أنهما وإن كانا يستخرجان من الماء المالح فمن المحتمل أن يستخرجا من الماء العذب كذلك . بل لقد ذهب بعضهم إلى أنهما يستخرجان فعلاً من الماء العذب فلقد قال الأخفش سعيد في ذلك : « زعم قوم أن اللؤلؤ يخرج من الماء العذب » .

وقال بعضهم إنهما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ويخرج من الآخر المرجان .

وقال ابن عباس^(١) « إنهما بحر السماء وبحر الأرض فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر فإنه يصير لؤلؤاً وبذا يصبح خارجاً منه » .

وعن الطبري قال الثعلبي^(٢) : « ولقد ذكر أن نواة كانت في جوف صدفة فأصابها القطرة (ويقصد قطرة المطر) بعض النواة ولم تصب البعض فكانت حيث أصابها القطرة من النواة لؤلؤة وسائرهما نواة » .

(١) القوطي - سبق ذكره .

(٢) نفس المصدر .

وقيل : « إن العذب والملح يلتقيان فيكون العذب كاللقاح للملح ولذلك قيل إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقي فيه العذب والملح » .

هذا هو موجز ما ورد من آراء المفسرين خاصة بما تتضمنه الآيات الكريمة التي تشير إلى البحرين وهي كما نرى تتفق في بعض وجهات النظر وتعدد في البعض الآخر ولكنها لا تعطي تحديداً واضحاً للبحرين . وسنعود إليها بعد قليل في سياق عرضنا للتطبيق الجغرافي لنصوص الآيات الكريمة .

التطبيق الجغرافي

في سبيل التطبيق الجغرافي لما جاء في الآيات الكريمة نعود إلى أقوال المفسرين عن البحرين وعن طبيعة مياههما وعن البرزخ الذي يفصل بين المائين وعن طبيعة اللؤلؤ والمرجان الذي يخرج منهما حتى نتبين معالم الطريق التي ينبغي أن نسلكها .

ونبدأ بما قيل عن البحرين وبما جاء عن الحسن وقتاده في هذا الشأن .

لقد روى عنهما الرازي والقرطبي - كما ذكرنا من قبل - أنهما يريان أن البحرين المقصودين هما بحر فارس و بحر الروم وأن الحاجز الذي يفصل ماءيهما هو أرض الحجاز .

وبحر فارس كما هو معروف هو البحر الذي يسمى حالياً الخليج العربي وهو بحر ملح . أما بحر الروم فهو البحر الذي يعرف حالياً بالبحر المتوسط وهو بحر ملح أيضاً .

فهل يتوافر في هذين البحرين ما يؤيد أنهما فعلاً البحرين اللذان تشير اليهما الآيات الكريمة .

إنهما أولاً بحران مالحان ، وما تتضمنه الآيات أن أحدهما عذب والآخر ملح .

ثم إنهما ثانياً لا يلتقيان لأن فاصلاً أرضياً واسعاً يفصل أحدهما عن الآخر .

وبناء على ذلك فإن البحرين كليهما لا يمكن اعتبارهما البحرين المنشودين .

وما يقال عن بحر فارس و بحر الروم ينطبق تماماً على ما قيل من أن البحرين المقصودين هما بحر الروم و بحر الهند فالبحران كلاهما مأوهما ملح وما تتضمنه الآيات الكريمة أن يكون أحدهما عذباً والآخر ملحاً .

أما ما نسب إلى ابن عباس من أن البحرين هما بحر السماء و بحر الأرض فالمقصود ببحر السماء هو الأمطار التي تتزود منها الأنهار بالماء وهي بحار عذبة وأن المقصود ببحر الأرض هو البحار الملحة . والمعروف أن بحار السماء عديدة وكذلك بحار الأرض ولم يحدد ابن عباس أي هذه البحار هو المقصود .

ومثل هذا القول ينطبق تماماً على ما نسب إلى ابن جريج من أن البحرين هما البحر المالح والأنهار العذبة فالبحار المالحة عديدة وكذلك الأنهار العذبة ولم يحدد ابن جريج أيها يعني .

نخلص مما سبق إلى أن ما ورد في أقوال المفسرين خاصاً بتحديد البحرين اللذين تشير إليهما الآيات الكريمة ليس فيه الوضوح الشافي ومن ثم فإن الحاجة ما زالت تدعو إلى مزيد من التحديد والإيضاح .

وربما كان هذا هو ما دعا العالم الجليل الدكتور محمد تاج إمام الجامع الأزهر إلى أن يوجهه إلى سؤاله الذي عرضته في أول هذا المقال .

— هذا فيما يتعلق بالبحرين أما عن البرزخ الذي يفصل بين المائين العذب والمليح فقد أشرنا من قبل إلى أن بعض المفسرين يرون أنه حاجز من الأرض اليابسة تراء العين وأن البعض الآخر يرى أنه حاجز غير مرئي من قدرة الله سبحانه وتعالى .

فإذا أخذنا بوجهة النظر الأولى واعتبرنا أن الحاجز الذي يفصل بين مائي

البحرين برزخ من الأرض اليابسة فلن يكون هناك التقاء بين البحرين لأن الحاجز الأرضي يفصل بينهما .

ثم ما هو الإعجاز في أن يكون الفاصل بين المائين أرضاً يابسة . إن الفصل هنا يكون أمراً طبيعياً . والصورة التي ترسمها الآيات الكريمة كما أشرنا من قبل صورة فيها إعجاز تتجلى فيه قدرة الخالق وعظمته وإلا فكيف نفسر مجيء آية « فبأي آلاء ربكما تكذبان » بعد تلك الصورة مباشرة .

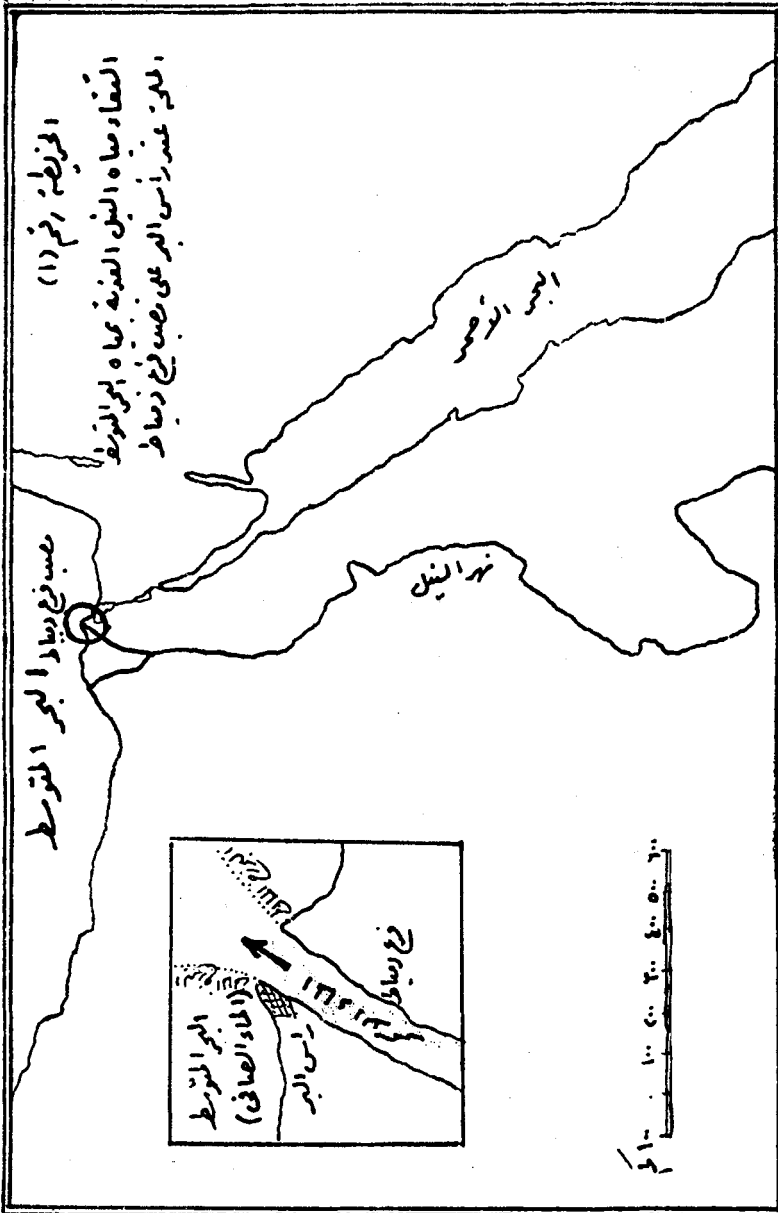
الأمر إذن أنه من غير المعقول أن يكون البرزخ الحاجز أرضاً يابسة ولا بد أن يكون برزخاً مائياً غير مرئي تتجلى فيه قدرة الخالق جل وعلا وتظهر عظمته سبحانه وتعالى .

والحاجز المائي المعجزة الذي يفصل بين الماء العذب والماء المالح ويحول دون امتزاجهما واختلاطهما لا يكون أمراً ممكناً إلا في حالة واحدة هي التي يلتقي فيها الماءان جنباً إلى جنب شريطة أن يتحرك أحدهما بحوار الآخر حركة سريعة جداً يندفع فيها الماء اندفاعاً قوياً لا يسمح للمائين بالاختلاط .

وربما يكون أظهر مثل نسوقه لتوضيح فكرة الحاجز المائي الذي يفصل بين المائين العذب والمالح عندما يلتقيان ويحول دون امتزاجهما هو التقاء ماء نهر النيل العذب عند مصب فرع دمياط بماء البحر المتوسط المالح في وقت الفيضان السنوي لنهر النيل .

فمياه فرع دمياط في وقت الفيضان تكون سمراء اللون بسبب ما تحمله من طمي ويكون تدفقها في النهر سريعاً وقوياً حتى إذا بلغت المصب والتقت بمياه البحر المتوسط الصافية اللون فإنها بسبب تدفقها السريع تشق طريقها وسط مياه البحر المتوسط دون أن تختلط بها ويكون بين المائين برزخ مائي غير مرئي يحول دون امتزاجهما . ويرى سكان مدينة رأس البر الواقعة عند مصب فرع دمياط المائين

الأسمر والرائق جنباً إلى جنب دون أن يختلطاً^(١) .



(١) الخريطة رقم (١) .

أما عن قوله تعالى : « لا يبغيان » واختلاف وجهة نظر المفسرين في معناها فإننا إذ تؤمن بأن البرزخ الذي يفصل بين ماء البحرين العذب والملح لا يمكن أن يكون أرضاً يابسة حتى يتحقق الإعجاز الذي يتضمنه التقاء المائتين الملح والعذب دون أن يمتزجا أو يختلطاً فإن تكون بنا حاجة إلى أن نفسر المعنى المقصود من قوله تعالى « لا يبغيان » بأنه إغراق الأرض المجاورة وعندئذ يكون المعنى البديهي هو إلا يبغي يبغي الماء في أحد البحرين على الماء في البحر الآخر ويمتزج به .

أما ما يتعلق بالؤلؤ والمرجان فالمعروف علمياً أنهما يختلفان في طبيعتهما وتكوينهما فالؤلؤ مادة صدفية ينتجها نوع معروف من الأصداف البحرية والمرجان مادة جيرية ينتجها نوع معروف كذلك من الأحياء البحرية المجهرية (أي الدقيقة جداً) ومن ثم فلا يمكن الأخذ بوجهة النظر القائلة بأن اللؤلؤ هو كباره والمرجان صغاره أو القائلة بعكس ذلك من أن اللؤلؤ هو صغاره والمرجان كباره .

والمعروف علمياً كذلك أنه يشترط لإنتاج اللؤلؤ والمرجان أن يكون إنتاجهما في بحر ملح شريطة أن يكون مأوذاً دافئاً ورائقاً وأن تكون أعماقه ضحلة .

وبناء على ذلك فلا سبيل لأن نأخذ بالرأي القائل بأن الماء العذب أو قطرات المطر لها أية علاقة بتكوين اللؤلؤ أو المرجان أو إنتاجهما .

وقبل أن نشرع في التطبيق الجغرافي لما جاء في الآيات الكريمة ينبغي بأدى ذى بدء أن نحدد الصفات والمعالم التي ينبغي توافرها في الصورة التي ترسمها الآيات حتى يكون التطبيق متلائماً مع الصورة تماماً .

وفي ضوء الآيات التي جاءت في السور القرآنية الأربع يمكن تحديد معالم الصورة على النحو الآتي :

١ - ينبغي أن يكون هناك بحران محددان أحدهما عذب والآخر ملح .

٢ - وينبغي أن يلتقي ماء البحر العذب بماء البحر الملح .

٣ - وينبغي ألا يختلط الماء العذب بالماء المالح رغم التقائهما أي ينبغي أن يبقى الماء العذب عذباً والماء المالح ملحاً .

٤ - وينبغي أن يكون هناك حاجز مائي من قدرة الله يفصل بين الماء العذب والماء المالح .

٥ - ينبغي أن يخرج اللؤلؤ والمرجان من البحرين معاً .

هذه هي المعالم التي ينبغي أن تكون موضع الاعتبار عندما نسعى إلى تحديد البحرين اللذين تشير إليهما الآيات الكريمة .

وثمة اعتبار آخر ينبغي أن يكون في المقام الأول هو أن الصورة التي تواجهنا إنما هي معجزة من معجزات الخالق جل وعلا ومعجزاته سبحانه وتعالى تكون دائماً من الجلاء والوضوح بحيث يراها الناس رأي العين حتى يكون لها أثرها في نفوسهم فيؤمنون بقدرة الخالق وعظمته .

وإذن فينبغي أن تكون الصورة التي ترسمها تلك الآيات صورة ظاهرة وجليّة لكل من يراها حتى يدرك الناس عظم الإعجاز فيها .

وحقّ نصل إلى الغرض المنشود في تحديد البحرين اللذين تشير إليهما الآيات الكريمة لا بد من إجراء عرض شامل لبحار العالم وأنهاره جميعاً لنرى أيها تنطبق عليه معالم الصورة التي سبقت الإشارة إليها .

ولكن هذه وتلك منتشرة في جهات الأرض جميعاً وهي من الكثرة بحيث يتعذر حصرها حصراً دقيقاً وهذا من شأنه أن يزيد من صعوبة تحديد البحرين المنشودين .

إلا أننا لو بدأنا بتطبيق بعض المعالم والصفات المانعة التي ينبغي توافرها في هذين البحرين فقد يساعدنا ذلك على إبعاد البحار التي لا تتوافر فيها تلك المعالم والصفات



وإسقاطها من بحثنا وعندئذ يضيق النطاق الذي نبحث في إطاره وبذا نبليغ الهدف في يسر وسهولة .

وأول الشروط والصفات المانعة التي نبدأ بتطبيقها شرط وجود اللؤلؤ والمرجان . وقد سبقت الإشارة إلى أن اللؤلؤ والمرجان هما نتاج لأنواع معينة من الأحياء البحرية التي لا تعيش إلا في المياه المملحة الدافئة . وهذا يؤدي بنا إلى أن نسقط من بحثنا جميع البحار والأنهار التي تقع خارج نطاق الجهات الحارة والدافئة ونعني بذلك البحار والأنهار الواقعة في المناطق الباردة والمعتدلة .

ومن بين البحار الدافئة التي يتوافر فيها اللؤلؤ والمرجان في العالم البحار التي تحيط بالجزيرة العربية كالبحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي وكذلك البحار المجاورة للهند والملايو وأندونيسيا وأستراليا وهذه البحار جميعاً مالحة وتصب فيها أنهار عذبة . أي أن مياهها تلتقي بعضها ببعض .

إذن ما هي الاحتمالات لتحديد البحرين المنشودين من بين هذه البحار ؟

— الاحتمال الأول :

كان أول احتمال فكرت فيه هو الخليج العربي كبحر مالح وشط العرب كبحر عذب :

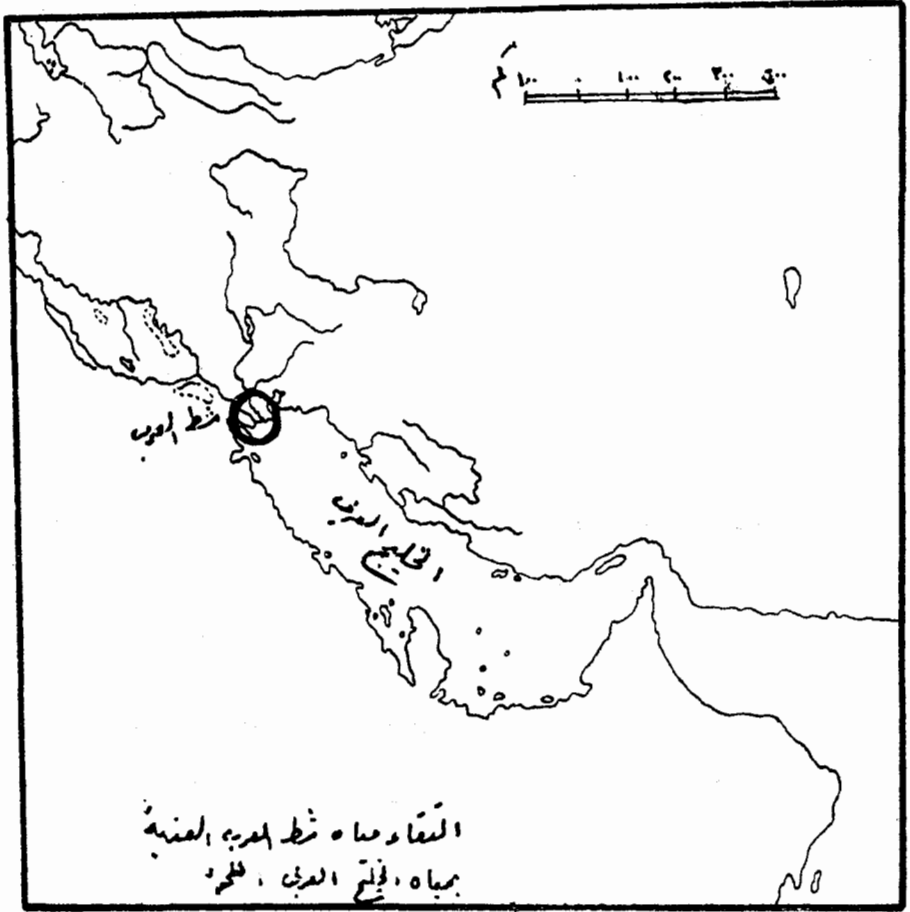
ففي هذين البحرين يتوافر الماء العذب والماء المالح .

وفيهما يلتقي الماء العذب والماء المالح .

ومنهما يستخرج اللؤلؤ والمرجان .

ولم يبق أمامي إلا البرزخ الحاجز الذي يفصل بين المائين العذب والمالح ويحول دون امتزاجهما . حتى تكتمل معالم الصورة .

والذي نعرفه أن مياه شط العرب وهي مياه عذبة يستمدتها من نهري دجلة



والفرات تكون أكثر ارتفاعاً في مستواها من مياه الخليج العربي في أثناء فترة الجزر فتتدفق مياه شط العرب في الخليج وتطرد أمامها مياه الخليج .

أما في أثناء فترة المدّ فإن مياه الخليج العربي المملحة يعلو مستواها عن مياه شط العرب العذبة فتندفع مياه الخليج المملحة في مجرى شط العرب وتطرد أمامها مياه شط العرب العذبة . وهكذا تتكرر هذه الظاهرة في كل مد وفي كل جزر (أي مرتين في كل ٢٤ ساعة) .

فهل تدفق المياه على هذا النحو من القوة والشدة بحيث يتكون الحاجز المائي بين المائين ويمنع اختلاطهما؟ كنت أؤمن بذلك في أول الأمر . إلا أن الدراسة أثبتت أن حركة مياه الخليج في أثناء توغلها في مجرى شط العرب في أثناء المد وكذا حركة مياه شط العرب في أثناء تدفقها في الخليج العربي في أثناء الجزر حركة بطيئة ولا تساعد على تكوين الحاجز المائي الذي يفصل بين المائين ويمنع اختلاطهما .

فالماء هنا يختلط فعلا ويمتزج الماء المالح بالماء العذب ومن ثم فلا يمكن اعتبار شط العرب العذب والخليج العربي المالح البحرين المنشودين .

— الاحتمال الثاني :

كانت فكرة البرزخ المائي الذي يفصل بين المائين العذب والمالح تسيطر على تفكيري وأنا أبحث في الاحتمال الثاني ولذلك فكرت في نهر النيل كبحر عذب والبحر المتوسط كبحر ملح .

فعند مصب فرع دمياط وهو أحد فروع النيل في البحر المتوسط في وقت الفيضان يكون ماء النيل جياشاً وغزيراً ويندفع في مياه البحر المتوسط بعنف وقوة بحيث يتكون البرزخ المائي الحاجز الذي يمنع امتزاج المائين أحدهما بالآخر^(١) .

وهنا يتوافر الماء العذب والمالح .

وهنا يلتقي المائان العذب والمالح .

وهنا لا تمتزج مياه النيل بمياه البحر المتوسط بسبب البرزخ الحاجز الذي يتكون نتيجة لاندفاع مياه النيل بقوة في مياه البحر المتوسط .

إلا أنه مع ذلك لا يوجد اللؤلؤ أو المرجان . وإذن فلا يمكن اعتبار هذين البحرين البحرين المنشودين .

(١) أنظار الخريطة رقم (١) .

اليأس بيسطر عليّ لولا أن قبض الله لي فرصة العمل في منطقة الخليج العربي واتجاهي نحو التفكير في إخراج مؤلف جغرافي عن الخليج .

وكان طبيعياً وأنا أعد لهذا المؤلف أن أدرس بين ما أدرس أهمية الخليج العربي كموطن لإنتاج اللؤلؤ الذي ظل لفترة طويلة عماد الحياة الاقتصادية ومصدر الرخاء لبلاد الخليج . وبينما كنت أدرس عمليات الغوص على اللؤلؤ التي كان يمارسها السكان في موطن إنتاجه في الخليج وبصفة خاصة في القطاع المائي الذي يواجه إقليم الأحساء في العربية السعودية صادفت أمراً عجباً .

فالمعروف أن الغوص على اللؤلؤ في موطن إنتاجه في الخليج العربي كان له موسمان وأن الموسم الأعظم منهما كان في الصيف وقت أن تكون المياه دافئة بحيث تتحملها أجسام الغواصين لفترة طويلة .

والمعروف أن الغواصين في هذا الموسم كانوا يخرجون إلى موطن الصيد في أعداد كبيرة كانت تصل أحياناً إلى نحو ٧٠ ألفاً وكانوا يخرجون في أساطيل من سفن الصيد كانت تضم ما يقرب من ٤٥٠٠ سفينة . وكانوا يخرجون من بلاد الخليج جميعاً من الكويت والعربية السعودية والبحرين وقطر وإمارات الخليج^(١) وكذلك من إيران .

والمعروف أنهم كانوا يقضون في أعمال الغوص نحواً من ثلاثة شهور وأنهم كانوا يحملون معهم في سفنهم مؤن الطعام والماء العذب . ولكن طول المدة التي كانوا يقضونها في البحر كان يستنفد ما صحبوه معهم من مؤن .

أما مؤن الطعام فكانوا يعوضونها بما تحمله اليهم سفن التجار التي كانت تزورهم في موطن الصيد بين وقت وآخر .

(١) اتحدت هذه الإمارات فيما بعد وكونت « دولة الإمارات العربية المتحدة » .

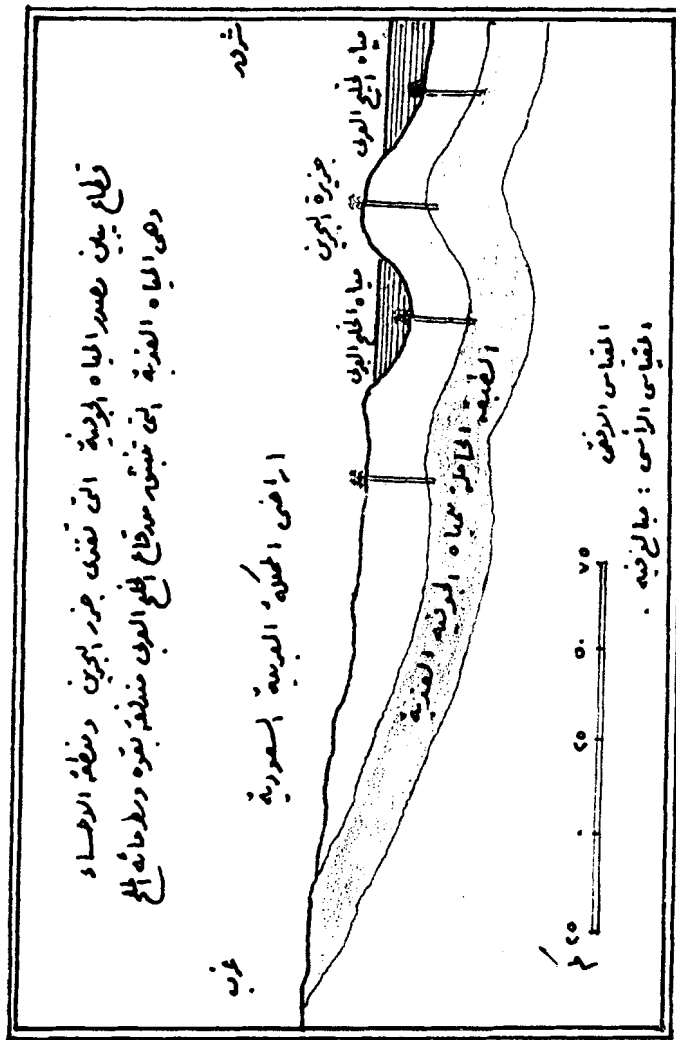
وأما الماء العذب فكان الغواصون ويا للعجب الشديد يحصلون عليه من جوف الماء المالح في الخليج . وكان الحصول على هذا الماء العذب من وسط الماء المالح أمراً عجيباً حقاً وكان أمراً ميسوراً في الوقت نفسه . كان الغواصون إذا فرغت قراب الماء العذب التي كانوا يحملونها معهم فوق ظهور السفن يغوصون بها في ماء الخليج المالح بعد أن يحكموا إغلاق أفواهها حتى إذا بلغوا القاع أو اقتربوا منه والأعماق هنا قليلة تتراوح بين ١٥ متراً و ٢٠ متراً وجدوا عيوناً يتدفق منها الماء العذب ويندفع إلى أعلا اندفاعاً قوياً وسط الماء المالح بحيث تساعد هذه القوة في الاندفاع على تكوين البرزخ المعجزة بين الماء العذب المتدفق من العيون وبين الماء المالح في الخليج ويمنع امتزاجهما واختلاطهما . وعندئذ يوجه الغواصون أفواه القراب نحو المياه العذبة المتدفقة من العيون إلى أن تمتلئ القراب بالماء العذب . وبعد ذلك يحكمون إغلاقها ثم يصعدون بها إلى سفنهم ويرتوون بها .

وهذه العيون من الماء الجوفي العذب منتشرة في قاع الخليج العربي حول جزر البحرين ويعرف الغواصون مواقعها كما يعرف سكان جزر البحرين ٢٣ موقعاً من المواقع التي تنبثق منها العيون وتعرف لديهم بالكوكبات والماء يتدفق منها دون انقطاع .

وهي تستمد الماء الجوفي من نفس المصادر الذي يغذي العيون في جزر البحرين نفسها وفي منطقة الخفوف ومنطقة القطيف في العربية السعودية وهو ماء غزير مدرار .

وإذن فنحن هنا أمام ظاهرة جغرافية هامة بل أمام معجزة كبرى من معجزات الخالق جل وعلا تدل على قدرته وعظمته . وهي ظاهرة موجودة في الجزيرة العربية وعلى مرأى من العرب وهم أول من نزل عليهم القرآن الكريم وهي ظاهرة تتوافر فيها كل معالم الصورة التي ترسمها الآيات الكريمة .

— ففيها يتوافر بحران أحدهما ملح أجاج هو الخليج العربي والآخر عذب فرات هو مجموعة الكوكبات التي يتدفق منها الماء العذب من جوف الأرض .



- وفيها يلتقي الماء العذب والماء الملح .
— وفيها يتوافر البرزخ المائي نتيجة لشدة انبثاق مياه العيون وقوة اندفاعها وهو حاجز لا يجعل أحد المائين يغني على الآخر ويمتزج به .

— ومنها يستخرج اللؤلؤ والمرجان بل إنها تعتبر أهم موطن لاستخراجهما في العالم .

وبعد ألا يمكن اعتبار هذين البحرين هما البحرين المنشودان اللذان عناهما القرآن الكريم حيث تجرى آياته تقول :

« مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان » .

« فبأي آلاء ربكما تكذبان »

« يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان »

« فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

وهلا يمكن اعتبار اسم البحرين الذي يطلق حالياً على مجموعة جزر البحرين والذي كان يطلق وقت نزول القرآن الكريم على مجموعة الجزر وعلى إقليم الأحساء معاً ألا يمكن اعتبار هذا الاسم مشتقاً من وجود هذين البحرين العظيمين العذب والملح .

وأخيراً هل يمكن أن يكون ذلك إجابة شافية عن السؤال الذي وجهه إلى العالم الجليل الدكتور محمد تاج إمام الأزهر الشريف .

أرجو أن يكون كذلك والله ولي التوفيق .

